فى منزل الوحى

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

لعل فريضة من فرائض الإسلام وشعائره لم تخدم الثقافة الإسلامية، وتنفع الأدب العربى كما خدمت فى ذلك فريضة الحج وأفادت ، فإن جل الذين كتبوا الرحلات ، وألفوا فى التاريخ الإسلامى خصوصاً تاريخ بلاد العرب ، ووصف طبيعتها وجغرافيتها وتقويمها ، هم من الذين كانوا يقصدون إلى أداء الفريضة المقدسة ، وزيارة الروضة المطهرة . وكتاب « فى منزل الوحى» إنما هو أثر من تلك الآثار التى فاض بها الشعور الإسلامى ، والاتجاه الروحى نحو تلك البلاد الطيبة التى تنزع إليها النفوس ، وتهفو نحوها الأرواح ، وتطمئن بذكرها القلوب . وقد وصف المؤلف الفاضل كتابه وتحدث عن القصد الذى قصده من تأليفه فقال : « وليس هـذا الكتاب مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامى ، ولاشىء فيه من تقويم بلاد العرب ، إنما هى وقفات وقفتها فى بلاد الوحى ومنزله ، أستوحى فيها مواقف محمد عبد الله ونبيه ورسوله ، وهناك فى هذه المواقف تجردت نفسى وسمت روحى وكررت بالعصور والقرون أطويها ، ورحت أتمثل هذا الهادى الكريم ، وأتمثل المسلمين من حوله ، ألتمس فى ذلك الأسوة والعبرة ، آملاً أن أشرك فيهما إخوانى المؤمنين بالله ، وبما جاء من عند الله . لم أتقيد فى هذه المواقف بما جاء فى كتاب غير كتاب الله الكريم ، ولم أخضع تفكيرى لحكم غيرى ، وما كان لى أن أخضعه ، فقد كنت أحس فى كثير من هذه المواقف أننى بين القوم أسمع وأرى ، وأتمنى لو كنت أجاهد معهم ، فأفوز فوزاً عظيما ، وما كان لى أن أفعل ثم أخدع نفسى فأزعم أننى إذ أحدث الناس إنما أقص عليهم مارأيته وما أحسست به في حين لا أقص إلا ما رآه غيرى ، وما سبقنى إلى تسطيره . لقد تركت نفسى على سجيتها تتوجه بوحى روحى ، وتستلهم الحق مما حولى ، وتستعرض ماتستلهمه على حكم عقلى وتقدير ضميرى ، ثم سطرت ما اجتمع من ذلك لا أبغى به إلا رضا الله »[1]

هذا كلام المؤلف الفاضل فى وصف كتابه ، وهو كلام ، على ما أرى ، فيه شىء من التواضع يغطي جانباً من الحق ؛ وقد تكون هذه نية الدكتور هيكل فى تأليف كتابه ، أراده على أنه « ليس مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامى ولا شىء فيه من تقويم بلاد العرب وإنما هى وقفات فى بلاد الوحى ومنزله » ولكنه على ما يظهر غلب على أمره فجاء كتابه مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامى ، وجاء خير دليل يجب أن يصحبه كل راحل إلى تلك البلاد ، وجاء أيضاً من أهم التقاويم لكثير من الأماكن فى بلاد العرب ، ثم جاء مشروع إصلاح قويم يهم من يهمهم « العناية بهذه البلاد المقدسة ودراسة حاضرها وماضيها دراسة علمية دقيقة ، وما يدعو المفكرين والساسة أولى العزم ليعملوا على إصلاح هـذه البلاد »[2] ، ثم هو نفحة روحية من أثر الرسول الكريم فاض بها قلب خافق وشعور دافق . فإذا كانت نية الدكتور هيكل على ما ذكرنا من قبل ، فلا شك أنه قد غلب على أمره ، وتجاوز رغبته فى إخراج كتابه ، وتحديد الموضوع

(١) ص ٢٠ من الكتاب
(٢) ص ٢٩ من الكتاب

الذى أراد أن يجرى فى حلبته ؛ وهو تجاوز قد اقتضته طبيعته ، ودفعته إليه صناعته ، فكان ذلك من حظ العربية وحظ قرائها وحظ رواد تلك البلاد المقدسة

نعم ! هو تجاوز اقتضته طبيعة هيكل ، لأن هيكلا كما نعرف صحافى ، والصحافى من طبيعته لا يقف عند شئ ولكنه يحب أن يقف على كل شئ ؛ ثم هو أديب دقيق الشعور وافر الإحساس يتأثر ويهتاج لكل ما يراه ويقع عليه حسه ، فإذا وصف أضفى على وصفه الإحساس والشعور وخلقه خلقاً حياً كله الروعة والجلال ؛ ثم هو عالم ناقد ينظر إلى كل شئ بعين فاحصة ، وفكر صائب وتقدير سديد ، وهذه الغريزة فى نفسه هي التى جعلته يقول ما يقول عن حق « إن لحكمى المكان الأول من الاحترام عندى ، وإذا لم يكن من حسن القصد أن نعجل بالحكم قبل أن نطمئن إليه وقبل أن تتم بين أيدينا أسبابه ، وكانت العجلة طيشاً غير جدير بمفكر يحترم عقله فليس من حسن القصد ولا من احترام المفكر عقله أن ينحل نفسه حكم غيره قبل أن يمحصه حتى يطمئن ضميره إليه ، ومن الجمود الذى لا يقاس إليه طيش أن نأبى تقليب الأمور على وجوهها جميعاً حتى نطمئن إلى بلوغ غاية ما نستطيع من الحق فيها [1] »

وأحب لك أن تتأمل الكتاب بنفسك ، وأن تصحب مؤلفه الفاضل من « عزم السفر » حتى « أوبة الرضا » فستقضى فى ذلك سفرة سعيدة ، ورحلة طيبة ، يسعد فيها عقلك بكثير من العلم والمعرفة ، ويفوز منها قلبك بكثير من البهجة والانشراح ، وتطيب بها روحك على خير ما تطيب به الأرواح من ذكر الماضى وأثر الدين ؛ غير أنى أحب لك أيضاً أن تكون صبوراً مع هيكل ما وسعك الصبر ، إذ تراه يسير سيراً بطيئاً فيقف بك عند كل أثر من آثار الرسول ، ينبش الماضى ، ويسأل التاريخ ، ويفحص المعالم ، ويستوحى الروح ، ويحكم العقل ، ويقارن بين ما يرى وما يسمع ، فإذا طفت معه مثلاً في أنحاء مكة الحديثة ، فكن شديد الاحتمال إذ تراه يدخل بك فى كل زاوية ، وينعطف بك على كل ثنية ، وينحدر بك إلى كل مغار ، ويرتفع بك إلى كل نجد ، ويدفعك دفعاً حتى بين النوى والأثافى ، والأحجار والصخور ، ويقف بك عند كل أثر ظاهر ، وكل مظهر قائم . وإذا ما صحبت هيكل مثلاً إلى أسواق العرب فاصبر إذ تجده يطيل عليك فيحدثك عن الأسواق الثلاث فى العهود القديمة ، ويتلمس لك موقع المجنة وموقع ذى المجاز ، ويكشف لك عن أسباب الخصومة فى الأسواق العامة ؛ ثم يحدثك عما كان يجرى فى عكاظ وعن موقف النبي صلى الله عليه وسلم فى تلك السوق ، ثم يسرد الأقوال التي قيلت فى ذلك من قبل محاولاً أن يطبقها على ما يرى وأن يقيسها بمقياس العقل . نعم أحب لك أن تكون صبوراً مع هيكل إذا رأيته فى جميع المواقف يبحث ويتقصى ويطيل النظر والتأمل فإنه إنما يقف بك على آثار ومعالم لحياة قوم ملأوا الدنيا بمجدهم ، وأسعدوا العالم بهديهم ، وأفعموا التاريخ بذكرهم . أما نفس هيكل فى هذه المواقف فهى نفس مطمئنة يقول هو عنها بأنها « قد سمت إلى حيث لم تسم من قبل قط [2] » وهو يحدثك عن شعوره فى ذلك فيقول : « رأيت نور الله ماثلاً فى كل دقيق وجليل من خلقه ، ورأيت آية الهدى متجلية يشهدها كل من أراد أن يفتح لها قلبه وبصيرته ، ورأيت سنته فى الكون تبتدى لكل من أخلص إلى الحق وجهة ثابتة لا تبديل لها ، رأيت هذا كله رأى العين ، وآمنت به إيمانى بما يقع عليه حسى ، وما تلمسه يدى ، وأيقنت أن العلم بهذا كله هو الحياة الراضية المرضية [3] »

وما نفس هيكل فى ذلك وشعوره إلا طراز من النفس السامية على حقيقتها ، ونمط من الروح الشرقية التى تمجد الدين أبداً ، وتقدس المعنويات أبداً ، إذ ترى سعادتها فى الروحيات أكثر منها فى الماديات

والظاهر أن هيكلا فى حياته الروحية الجديدة قد اتصل بالقرآن اتصالاً وثيقاً ، وتغذى بألفاظه وأساليبه كما تغذى بمعناه وروحه ، وإنك لتلمح أثر ذلك واضحاً جلياً فى تعابيره خصوصاً إذا ما تحدث عن معانى الإسلام تعمر القلوب ، وسمو الإيمان يغمر الأرواح والنفوس . انظر إليه وهو يصف الحجاج محرمين فى طريقهم إلى مكة فيقول : طبع هذا المنظر أعمق الأثر فى نفسى

(١) ص ٢١ من الكتاب

(١) و (٢) ص ٦٢٧ من الكتاب

فهذه القوافل من المشاة والركبان تقصد إلى غاية واحدة وترجو فى ربها الرجاء الأسمى ... ليس يذكر أحدهم ماله من ثروة أو جاه أو ولد ، وإنما يذكر أنه هو وهؤلاء المسافرين معه إخوة فى الله وأنهم جميعاً قد أتوا قاصدين بيته ، ملبين داعيه ، ليشهدوه على أنفسهم وليطهروا بين يديه مما قدمت أيديهم ، وليبدؤا بذلك حياة جديدة يبتغون فيها أناهم الله الدار الآخرة ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا ويحسنون كما أحسن الله إليهم ، ولا يبغون الفساد فى الأرض . لهذا جاءوا من كل فج عميق ، ولهذا ركبوا البر والبحر واستهانوا بالمشقة ونسوا كل شىء إلا الله ، ولهذا أحرموا آية إخائهم ومساواتهم إيذاناً بأن أقربهم إلى الله أتقاهم ، ومظهراً لميلادهم الروحى الجديد ، ليتخذوا من هــذا الميلاد عدتهم لحياة جديدة ، ولهذا تتصل قلوبهم وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم ولهجاتهم ، وهم يعبرون عن هذا الشعور بالتلبية تنفرج عنها شفاههم فى حبور وغبطة مطمئنين إلى رحمة الله ومغفرته ، إنه يغفر الذنوب جميعاً ، لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء[1]

فهيكل كما ترى مولع بآيات القرآن يقتبسها لأسلوبه ؛ ويقحمها فى عباراته ، ويستخدمها استخداماً طلياً منسجماً يدل على مهارة وتمكن . ولقد بلغ من ولعه بألفاظ القرآن أن آثر كلمة « طوّع » على مرادفتها فى الاستعمال ، فعبر بها مراراً إلى حدّ يلفت النظر ، حتى أنه ليستخدمها فى مواضع قد تكون مرادفاتها أولى بها ، وقد لا تؤدى المعنى إلا على شئ من التسامح ، ولكن هيكلاً يؤثرها لأنها لفظة قرآنية فهى حلوة سائغة . وإن من العجيب حقاً أن يؤثر هيكل ألفاظ القرآن كل هذا الإيثار ، وأن ينتفع بأسلوبه إلى هذا الحد الذى يفوق فيه أولئك الذين شبوا على مدارسة القرآن ، وقضوا أعمارهم فى مزاولة عباراته والبحث فى نصوصه على حين أنه قد نشأ نشأة مدنية كما يقولون ، وتثقف ثقافة تتصل بالغرب أكثر مما تتصل بالشرق ، وما آثاره الأولى إلا لون من ألوان تلك الثقافة الأجنبية . وإنما يسر لهيكل أن يندمج فى حياته الروحية كل هذا الاندماج ، وأن يتصل بثقافة القرآن وأسلوبه كل هــذا الاتصال ، أنه ذو موهبة فنية ، وطبيعة أدبية صافية ، والأديب إذا ما صفت طبيعته ، وخلصت نفســه ، ينطبع على الحياة التى يريدها وكأنها حياته التى تعودها حياته ، ويفنى فى البيئة التى يلابسها فإذا هو صورة قوية رائعة لما فيها من الألوان والمظاهر ، ويخضع حواسه فى الانفعال للفكرة يريد تنفيذها فينجلى لك صادق الأحساس صحيح الغرض ، وهذا هو السر فى أنك ترى الكاتب أو الشاعر يدرج بين صخور البادية وعلى أشواكها فتلمح فى أسلوبه وتفكيره الشدة والجفوة ، ثم ينتقل إلى مطارف الحضارة فاذا به هين لين مذلل الفكر يجرى أسلوبه فى مثل رقة الماء والهواء . وهذا هو السر أيضاً فى أنك ترى الكاتب أو الشاعر يحدثك مثلاً عن البؤس فيجيد الحديث على أنه ليس ببائس ، ويقول فى النسيب والغزل فيملك عليك نفسك مع أنه ليس بغزل ولا محب ، فكيف بذلك الأديب أو الشاعر إذا كان صادق العاطفة ، خالص الرغبة ، صافى النفس والروح كهيكل فى حياته الجديدة ؛ لا شك أنه يكون شيئاً كبيراً ، ويكون أثره أثراً قوياً رائعاً كهيكل « فى منزل الوحى »

وأما بعد فقد أطلت على القارئ ، ولنا وقفة أخرى مع « هيكل » فى منزل الوحى سيرى القراء فيها لوناً طلياً من ألوان الفكر الروحى الذى يحترم العقل ويمجد الحق

محمد فريد عبد اللطيف

(١) ص ٦١ من الكتاب

تشاكريات

ديوان بالنثر الفنى . له مقدمة فى الأدب بين العلوم وتمهيد فى الشعر بين النظم والنثر

بقلم

عبد المجيد مصطفى خليل

يباع بخمسة قروش فى مكاتب النهضة والانجلو والمعارف بالقاهرة ، وفيكتوريا ومنير بالاسكندرية